﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: 103 - 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

مـن أخـلـصَ وصدقَ في طلبِ التَّوبة؛ أعانَهُ الـلـه عليها، ووفَّقه إليها

لَمّا أخبرَ اللّه سبحانه أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّه غفّار لمن تاب من المتخلِّفين عن رسولِهِ ﷺ، المعترفين بما اقترفوا، أمرَ سبحانه رسولَهُ الكريم ﷺ أن يقبل مِن أولئك التائبين النّادمين ما يقدِّمونه من صدقات، وأن يُطمْئِنَ قلوبهم بالدُّعاء لهم؛ لتذهبَ بذلك شوائب ذنوبهم، ولتتأكَّد توبتهم[1]، وكذلكَ لَمّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرين، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلِمينَ بالمالِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: المال: ما ملكته من متاع الحياة الدنيا، وصحَّ الانتفاع به، ويطلق في الغالب على النُّقود، وجمعه: أموال[3]. ومعناه المحوريُّ يدور حول: "مادَّة الأثمان والنَّفقة التي تتيح الشِّراء،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/159، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مول).

وتتحصَّل من البيع أو الإرث أو أجر العمل"[1]. وسُمِّي المال بذلك؛ لأنه مائلٌ أبدًا، وزائلٌ كذلك، ولذلك سُمّي: عَرَضًا؛ لأنَّه أمْرٌ يعرِض ويزول[2].

2) ﴿صَدَقَةً﴾: الصَّدقة: ما يُخرِجه الإنسان من ماله على وجه القُربة، يدفعه للفقراء والمساكين[3]. والغالبُ أن تكون الصَّدقةُ لِما كان إنفاقًا للفقراء والمساكين تطوُّعًا، والزَّكاة لِما كان إنفاقًا واجبًا[4]. ومعناها المحوريُّ: يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء، سواءٌ كان قولًا أو غيرَهُ، والصَّدقة التي تُعطى للفقير من القوَّة والصَّلابة؛ لأنَّه بها يتقوّى، ويَصلُب، ولأنَّها برهانٌ على صدْقِ إيمان المتصدِّق وقوَّتِه[5].

3) ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: الطُّهْر: نقيضُ النَّجاسة والدَّنَس، والتَّطهُّر: التَّنزُّه والتَّنظُّف من النَّجاسة والدَّنَس، وقوم يتطهَّرون: يتنزَّهون من الأدناس[6]، وأصله يدلُّ على نقاء من الدَّنَس وزواله[7].

"والطَّهارة ضربان: طهارة جسمٍ، وطهارة نفسٍ"[8]. والطَّهُور: ما يُتَطَهَّر به، أمَّا الطُّهُور: فهو فعل التَّطَهُّر[9].

والتَّطَهُّر كما يكون تَنَزُّهًا عن النَّجاسة والدَّنَس - وهو فعل الطَّهارة في جسم - يكون تَنَزُّهًا عن الآثام، وكفًّا عمّا لا يَجمُل، ولا يُحمَد، ومنه قوله تعالى حاكيًا قولَ قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. أي: يَتَنَزَّهون عن إتيان الذُّكران الذي هو من الإثم والدَّنَس، وما لا يجمُل لمخالفته الفطرة.

ورجل طاهرُ الثَّوب، أي: مُنَزَّهٌ عن الآثام، وليس بذي دَنَس في خُلُقه[10]. ومنه قوله

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مول).
(2) الرّاغب، المفردات: (ميل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صدق).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مجمل اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (طهر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).

تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. " معناه خذ يا محمَّد مِن أموالهم صدقةً، فإنَّك تُطَهِّرهم بأخذها مِن دَنَس الآثام"[1].

4) ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: الزَّكاة: النَّماء والبركة والزِّيادة، وكذلك التَّطهير[2].

وأصله يدلُّ على النَّماء والزّيادة، وترجع معانيه كلُّها إلى النَّماء والطَّهارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]. وكذلك زكاة المال: ما تخرجه من مالِك لِتُطَهِّره به[4].

5) ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: الصَّلاة: الدُّعاء والثَّناء والاستغفار[5]. وأصل معانيها يرجع إلى الدُّعاء[6]، والصَّلاة من الله: رحمة، ومن الملائكة والنّاس: دعاءٌ واستغفار[7].

وصلاةُ الله على رسوله محمَّد ﷺ: حُسْنُ الثَّناء عليه من الله في الملأ الأعلى، والتَّعظيم والتَّكريم له[8].

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. أي: "واعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم"[9].

6) ﴿سَكَنٌ﴾: السُّكون: ضدُّ الحركة، وسَكَن الشَّيء سُكُونًا: استقرَّ وثبت، وكلُّ ما هدأ، فقد سكن، كالرّيح والحرِّ والبرد والغضب[10]. وأصله يرجع إلى الاستقرار، وخلاف الاضطراب والحركة، من هدوء أو ثباتٍ[11]، ومنه سكن دارَهُ، بمعنى: أقام بها، ويستعمل بمعنى الاستيطان كذلك، والمَسكَن: المَنزِلُ والدّار والبيت، وجمعه: مساكنُ[12].

والسَّكَن: أهل البيت والدّار، وكذلك العيال، والسَّكن: كلُّ ما يُسكَن إليه، ويُطمأنُّ به من أهل وغيره، ومن هذا المعنى الأخير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[13].

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (طهر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات: (صلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/96.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الصَّدقةُ رِفعةٌ للدَّرجات وتزكية، وطُهرة من الذُّنوب والخطيئات

يأمر المولى ﷻ نبيَّه الكريمَ ﷺ أَنْ يأخذَ مِن هؤلاء المعترفين بذنوبهم، ومِن غيرهم صدقةً بمقدار معيَّن كالزَّكاة المفروضة، أو بمقدار غير معيَّن كصدقة التَّطَوُّع؛ وذلك لتكون طُهْرةً لهم من دَنَسِ ذنوبهم ونماءً ورفعةً لهم مِن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، كما يأمره سبحانه أَنْ يدعُوَ لهم بالمغفرة لذنوبهم، وأن يستغفرَ لهم منها؛ فدعاؤه ﷺ رَحمةٌ وطُمأنينةٌ لقلوبهم، وَاللَّه سَمِيعٌ باعترافهم عَلِيمٌ بندامتهم، وفي الآية التالية يخبر سبحانه بصيغة الاستفهام المفيدِ للتَّقرير لهؤلاء التّائبين الَّذين تخلَّفوا عن الغزو، ولغيرهم من المذنبين، أنَّ اللَّهَ سبحانه وحدَه هو الذي يقْبلُ التَّوبَةَ الصَّحيحَةَ الصّادِقَةَ مِن عباده المخلصين، ويقْبلُ كذلك الصَّدقاتِ الطَّيّبةَ، ويثيب عليها، وهو تعالى غنيٌّ عنها، وهو مع ذلك كثيرُ التَّوبةِ واسعُ الرَّحْمةِ والمغفرةِ لِمَنْ تاب إليه وأناب[1].

وترشد الآيةُ إلى أنَّ الصدقةَ تكفِّر الذُّنوبَ، وتطهِّر الأرواحَ من رذيلة الشُّحِّ والبخل، وإلى استحبابِ الدُّعاءِ من الإمامِ أو نائبِه لمن أدَّى زكاتَه بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جَهرًا؛ بحيث يسمعُه المتصدِّقُ، فيسكنُ له، وأنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمن بالكلام اللَّيِّن، والدُّعاءِ له، ونحوِ ذلك ممّا يكون فيه طمأنينةٌ، وسكونٌ لقلبه، وأنه ينبغي تنشيطُ من أنفقَ نفقةً وعملَ عملًا صالحًا بالدُّعاء له والثَّناء عليه، ونحو ذلك[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/659 - 664، والبغوي، معالم التنزيل: 4/91 - 92، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، وابن جزي، التسهيل: 1/347، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/181 - 182، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350 - 351، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/397 - 398، والزحيلي، التفسير المنير: 11/29 - 30، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/26 - 27، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422، والمجلس الأعلى، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 278، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقاتها:

هذه الآية منفصلةٌ عن الآيات السّابقة للاستئناف النَّحويِّ عند بعضهم؛ فهي كلامٌ مبتدأ، والمقصود منها إيجاب أخذ الزَّكاة من الأغنياء[1]، ففصلها لكمال انقطاعها عن سابقتها.

مـــن شـــأن الـرِّضـوان قَـبـولُ القربان

ويمكن أن تكون واقعةً موقعَ الاستئناف البياني؛ ذلك أنَّه لمّا قال الله ﷻ في الآية السّابقة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التَّوبة: 102] نشأ سؤالٌ عن كيفيَّة هذه التَّوبة، وعمَّا تتحقَّق به؛ فجاءت هذه الآية بإجابة هذا السُّؤال، وهي أنَّ توبتَهم حاصلةٌ بدفعهم أموالَ زكاتهم، ففُصِل بين الآيتين لشِبه كمال الاتِّصال بينهما[2].

وعلَّة ترتيب حصول التَّوبة على دفع أموال الزَّكاة تظهر بمعرفة سببِ نزول هذه الآية الكريمة؛ وذلك أنَّ المتخلِّفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك لمّا أظهروا التَّوبة والنَّدامة، عن تخلُّفهم عن الغزوة، وقد أقرُّوا بأنَّ السَّبب الموجب لذلك التخلُّف هو حبُّهم للأموال وشدَّة حرصهم على صونها عن الإنفاق، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهر صحَّة قولكم في ادِّعاء هذه التَّوبة والنَّدامة لو أخرجتم الزَّكاة الواجبة، ولم تبخلوا بها، أو تتقاعسوا عنها كما تقاعستم عن الغزو؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقرَّر إلا بالمعنى، وعند الامتحان يُكرَم الرَّجُل، أو يُهان، فإنْ أدَّوا تلك الزَّكوات عن طيب نفس منهم، فقد ظهر كونُهم صادقين في تلك التَّوبة والإنابة، وإلّا فهُم كاذبون مزوِّرون بهذا الطريق[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.
(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 164.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

فدلالةُ الخطاب ظاهرةٌ على وجوب أَخْذِ الزَّكاة من سائر المسلمين؛ لاستواء الجميع في أحكام الدِّين إلا ما خصَّه الدَّليل؛ وذلك لأنَّ كلَّ حكمٍ حكمَ به الله تعالى ورسوله ﷺ في شخص أو على شخص من عباده أو غيرها، فذلك الحكم لازمٌ في سائر الأشخاص إلّا إذا قام دليلُ التَّخصيص فيه[1].

والفائدة المعنويَّة والبلاغيَّة الحاصلة من فصلِ هذه الآية عن سابقاتها، وحمْلِ لفظها على العموم - عمومُ الأمر بأخذ الزَّكاة من الأغنياء - تظهر في توجيه القرآن للمجتمع الإسلاميِّ بألّا ينشغل بالمال عن عبادة ربِّ المال، وألّا يُقعده طلبُ تحصيله وتكثيره وصيانته عن اقتحام لُجَجِ المعالي في عبادة الغنيِّ المتعالي، وأنَّ الصَّدقة تطهِّر المالَ وصاحبه، وأنَّ مَن لم يستطع الجهادَ ببدنه؛ فليجاهد بماله وليُجهِّز الغُزاة.

دلالةُ الأمر ﴿خُذْ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ ظاهرُه الوجوب، فدلَّ هذا النَّص على أنَّ أَخْذَ الزَّكاة واجب[2]. وفيه أيضًا دليل على أنَّ الإمام أو من يُنيبُه هو الذي يتولّى أَخْذَ الصَّدقات، وينظرُ فيها[3].

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾:

كلمة ﴿مِنْ﴾ تفيدُ التَّبعيضَ، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّ القَدْر المأخوذ هو بعضُ تلك الأموال، لا كلُّها؛ إذ مقدار ذلك البعض غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريح اللَّفظ، لكنَّ المعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلّا صدقاتِ أصول الأموال التي تجب فيها الزَّكاة، التي وصفها رسول الله ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها[4].

الـلـهُ العـلـيـم الحكيم يهدي عـبـاده لأقـوم أمـــورهـــم، ويـأمـرُهـم بما يصلح شؤونهم

الـلـه الـرَّحـيـم يـقـبـلُ صدقة الـتّـائـبـين المخلصين، وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين

(1) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

وفائدة كون ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةً في هذه الآية، هو بيانُ كمال رحمة الله سبحانه مع عدُوِّه؛ ذلك أنَّ المتخلِّفين عن غزوة تبوك أرادوا التَّصدُّق بجميع مالهم، فأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يأخذ بعضَها لتوبتهم؛ لأنَّ الزَّكاة لم تُقبل من بعض المنافقين، فترتبط الآيةُ بما قبلَها، وقيل: ليست هذه الصَّدَقَةَ المفروضة، بل هم لمّا تابوا وبذلوا جميع مالهم كفّارةً للذَّنب الصّادر منهم، فأمر الله تعالى رسولَه ﷺ بأخْذِ بعضها وهو الثُّلُث[1].

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ على المفعول به ﴿صَدَقَةً﴾ للاهتمام والتَّخصيص، ذلك أنَّ سياقَ الآية سياقُ تحضيض على التَّوبة، وتبشيرٍ بقبولها ممَّن تابوا، وأنابوا، وتمييز المقبولين من التّائبين عن المنافقين المنبوذين.

الحفاوة بالتّائبين من شأنها تعجيلُ بشراهم بقبول نفقاتهم

ويمكن أن يكون تقديمُ شبه الجملة من باب تعجيل المسرَّة بسَوْق البشرى، فكأنَّه قيل لهم: إنَّ أموالكم التي جئتم بها إلى النَّبيِّ ﷺ ليكون إنفاقكم إيّاها كاملة كفّارة لكم عن ذنب تخلُّفكم عن الغزوة – هذه الأموال – قد قبلها الله تعالى بخلاف أموال المنافقين التي لم تُقبل، وأموالكم هذه لن تؤخذ كاملة، بل سيؤخذ بعضها فقط، ويُردُّ لكم سائرها.

وهذا بخلاف لو كان نظم الآية: (خذ صدقةً من أموالهم)؛ لأنَّ الاهتمام حينئذٍ سيكون منصبًّا على المأخوذ وهو الصَّدقة، لا المأخوذ منه، وهو المال الذي قَبِلَ الله تعالى إنفاق التّائبين إيّاه للتَّكفير عن ذنوبهم.

من كمال إكرامِ الله تعالى لخلقهِ أن أغناهم من فضله

غرضُ إضافةِ الأموال إلى الضَّمير، ومعنى الجمع فيها:

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يقتضي أن يكون المالُ مالًا لهم، ومتى

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.

كان الأمر كذلك؛ لم يكن الفقير شريكًا للمالك في النِّصاب، وحينئذٍ يلزم أن تكون الزَّكاة متعلِّقة بالذِّمَّة[1].

والضَّمير الذي في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ عمومٌ يُراد به خصوصٌ؛ إذ يخرج منه العبيد وسواهم[2].

"ومعنى الجمع في الأموال يقتضي أنَّه يأخذ بعضَ كلِّ صِنفٍ من المال: الثِّمار والمواشي والنُّقود"[3]، وهو من العموم الذي يُراد به الخصوص؛ إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالرِّباع والثِّياب[4].

ويضاف إلى ما سبق أنَّ إضافة الأموال إلى الضَّمير - سواء حُمِل على التَّائبين أصحاب واقعة النُّزول أم على عموم الأغنياء - فيها تذكير بنعمة الله عليهم؛ إذ أغناهم من فضله، وجعل لهم مالًا يمتلكونه، ويتصرَّفون فيه، فلا يجوز لهم الامتناع بالبخل عن إنفاقه على المحتاجين ممَّن حُرموا، ولا سيَّما أنَّ أجر هذا الإنفاق يعود عليهم هم، فهم المنتفعون به في الدُّنيا والآخرة، والله تعالى غنيٌّ ورسوله ﷺ غنيٌّ عن هذا المال.

نكتة تنكير: ﴿صَدَقَةً﴾:

الصَّدقة معلومةٌ ببيان السُّنَّة الخالد

ليس المراد من التَّنكير العمومَ حتى يكفي أخذُ أيِّ جزء كان، وإن كان في غاية القِلَّة، مثل الحبَّة الواحدة من الحنطة، أو الجزء الحقير من الذَّهب، فوجب أن يكون المرادُ منه صدقةً معلومة الصِّفة والكيفيَّة والكمّية عند المخاطَبين، حتى يكون قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذ تلك الصَّدقة المعلومة، فحينئذٍ يزول الإجمالُ، ويكون التَّنكير للنوعيَّة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/78.
(3) الواحدي، البسيط: 11/33.
(4) البحر المحيط، أبو حيان: 5/499.

ومعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلا الصَّدقات التي وصفها رسولُ الله ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها، فبذلك كان قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأن يأخذ تلك الأشياء المخصوصة، والأعيان المخصوصة[1].

فكان الإجمال في لفظ الصَّدقة دون لفظ الأموال؛ لأنَّ الأموال اسمٌ عمومٍ في مسمَّياته، إلا أنَّه قد ثبت أنَّ المراد خاصٌّ في بعض الأموال دون جميعها، والوجوب في وقتٍ من الزَّمان دون سائره[2]، ويمكن أن يكون تنكير ﴿صَدَقَةً﴾ للتَّعظيم من شأنها مع قلَّة حجمها.

دلالة التَّعبير بالصَّدقة:

قوله تعالى: ﴿صَدَقَةً﴾ "مأخوذ من الصِّدق؛ إذ هي دليلٌ على صحَّة إيمانه، وصِدق باطنه مع ظاهره، وأنَّه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصَّدقات"[3].

لكلِّ قولٍ حقيقةٌ، فمَن صدق إيمانه؛ فالصَّدقة برهانه

فلمَّا كان النِّفاق من أفدح الكذب وأقبحه؛ كانت الصَّدقة دليلًا على صدْقِ المؤمن وإخلاصه، فبضِدِّها تتميَّز الأشياء، وممَّا يؤكِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «والصَّدقة برهان»[4].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

تقديمُ الدَّليلِ على صدق الإيمان يعودُ على صاحبه بالتَّطهير والغفران

يصلح أن يكون قولُه تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ نعتًا للصَّدقة، كأنَّه قال: خذ من أموالهم صدقةً مطهِّرةً، والأجود أن يكون عودُ الضمير في ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمعنى: خذ من أموالهم صدقةً، فإنَّك تطهِّرهم بها، وقُرئ شاذًّا (تُطَهِّرْهُمْ) بالجزم على جواب الأمر، والمعنى: إنْ تأخذ من أموالهم صدقةً تطهِّرْهم، وتزكِّهم، ولا يجوز في القراءة إلا إثباتُ الياء في ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ اتِّباعًا للمصحف[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/356.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/249.
(4) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطَّهارة، باب: فضل الوضوء، حديث رقم: (223): 1/140.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/467.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من حيثُ المادَّةُ والصيغة:

الصَّدقة مَغْسلةٌ للإثم، مَطْهرةٌ من الـذَّنـب، مَقْربةٌ إلى الربِّ

تدور معاني الطُّهر حول النَّقاء، وزوال الدَّنس، وانقطاع القذى، ثُمَّ عُمِّم في التَّنزُّه عن القبائح المادّية والمعنويَّة، ومنه: التَّطهُّر: التَّنزُّه عن الذَّمِّ وكلِّ قبيح، وتطهَّر من الإثم: تنزَّه منه[1].

"وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، يعني: إزالة نجس الذُّنوب بما يعطي من الصَّدقة؛ وذلك لأنَّه لمَّا أطلق اسم النَّجس على الكفر تشبيهًا له بنجاسة الأعيان؛ أُطلق في مقابلته وإزالته اسم: التَّطهير، كتطهير نجاسة الأعيان بإزالتها، وكذلك حكمُ الذُّنوب في إطلاق اسم النَّجس عليها، وأطلق اسم التَّطهير على إزالتها بفعل ما يُوجب تكفيرها"[2].

"وإنَّما حسُن جعلُ الصَّدقةِ مطهِّرةً؛ لما جاء أنَّ الصَّدقة أوساخُ النَّاس[3]، فإذا أُخذتِ الصَّدقةُ؛ فقد اندفعت تلك الأوساخ، فكان اندفاعها جاريًا مجرى التَّطهير"[4].

وفي الآية الكريمة نصٌّ على أنَّ الصَّدقة تطهِّر مَن ندموا على تخلُّفهم عن الغزو مع النَّبيِّ ﷺ، وتابوا منه، وجاؤوا بأموالهم متصدِّقين، فهي "تطهِّرهم؛ لأنَّ الذَّنب الذي فعلوه، واعترفوا به؛ تسبَّب في تقذير أنفسهم بالمعصية، وما داموا قد قذَّروا أنفسَهم بالمعصية؛ فهُم في حاجة أنْ يطَّهَّروا بالمال الذي كان سببًا في عدم ذهابهم إلى الغزوة"[5].

نكتةُ عود التاء في: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يجوز فيه أن تكون التاء خطابًا للنَّبيِّ

مَن كثُر دنسُهُ؛ طـهَّرتـه توبته، ومَن كبَّله ذنبه؛ أطلقته قُربتُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(3) من قوله ﷺ: «إنَّ هذِه الصَّدَقاتِ إنَّما هي أوساخُ النّاسِ، وإنَّها لا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، ولا لِآلِ مُحَمَّدٍ». رواه مسلم، صحيح مسلم: الحديث رقم: (1072).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5470.

ﷺ، وأن تكون للغَيبة، والفاعل ضمير الصَّدقة، فعلى الأوَّل تكون الجملةُ في محل نصبٍ على الحال من فاعل ﴿خُذْ﴾. ويجوز أيضًا أن تكون صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾، ولا بدَّ حينئذٍ مِن حذف عائدٍ تقديرُه: تطهِّرهم بها. وحُذف (بها) لدلالة ما بعده عليه، وعلى الثَّاني تكون الجملة صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾ ليس إلَّا[1].

ويُستفاد من هذين التَّوجيهين كون النَّبيِّ ﷺ مطهِّرًا لهم بما أخذ من صدقاتهم التي تابوا بها، وكون الصَّدقة نفسها مطهِّرة لهم بما يترتَّب عليها مِن الثَّواب، ومغفرة الذُّنوب الموجبة للعقاب.

بلاغة العطف لـ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾:

مَـن اعتصم بالله؛ وقاه، ومَن أناب إليه؛ طهَّره الله، وزكَّاه

قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، ولمَّا كانت التَّزكية معطوفةً على التَّطهير؛ وَجَبَ حصول المغايرة بينهما؛ إذ المعطوفان متغايران لا محالة، ومِن هنا قيل: التَّزكية مبالغة في التَّطهير.

وهي أيضًا بمعنى: الإنماء، والمعنى: أنَّ الله تعالى يجعل النُّقصان الحاصل بسبب إخراج قدْرِ الزَّكاة سببًا للإنماء، وقيل: الصَّدقة تطهِّرهم عن نجاسة الذَّنب والمعصية، والرَّسول ﷺ يزكّيهم ويعظِّم شأنهم، ويثني عليهم عند إخراجها إلى الفقراء[2].

وقد أفاد العطف بقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معنًى فوق الإنماء والمبالغة في التَّطهير، وهو الرِّفعة، أي: رفعتُهم عن خسيس منازلِ أهلِ النِّفاق إلى منازل أهل الإخلاص بعد نزول توبتهم، وقَبول نفقتهم[3].

فضلًا عمَّا أدَّاه هذا العطف البديع من تكامل المعنى، فإنْ كان التَّطهير من طلب الأعواض عليها؛ فإنَّ التَّزكية عن ملاحظتهم

(1) السمين، الدر المصون: 6/115 - 116.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/136، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/659.

إيّاها، وإنْ كان التَّطهير بها عن شُحِّ نفوسهم؛ فإنَّ التَّزكية بها بألّا يتكاثروا بأموالهم، فيروا عظيم منَّة الله عليهم بوجدان التجرُّد منها[1].

دلالةُ التَّعبيرِ في: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّزكية طُهرةٌ ونماء، ورفعة عن قذر أهل النِّفاق والأهواء

تدور معاني التَّزكية حول النُّموِّ والبركة والزِّيادة مع جودة النَّوع، وتدلُّ أيضًا على الطَّهارة[2].

والتَّزكية هنا مبالغةٌ في التَّطهُّر وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال[3].

والمعنى: وتزكّي أنفسَهم بتلك الصدقة التي ستأخذها منهم، أي: تنمّيها، وترفعها بالخيرات والبركات الخُلُقيَّة والعمليَّة حتى يكونوا بها أهلًا للسَّعادة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة[4].

بلاغة التَّرتيب في تقديم التَّطهير على التَّزكية والصلاة في الذكر:

التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية

"معنى التَّطهير: إذهاب ما يتعلَّق بهم من أثر الذُّنوب، ومعنى التَّزكية: المبالغةُ في التَّطهير"[5].

والتَّزكية أيضًا: جعلُ الشَّيء زكيًّا، أي: كثير الخيرات، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التَّخلية عن السَّيِّئات، وقوله سبحانه: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية، فالمعنى: أنَّ هذه الصَّدقة كفَّارةٌ لذنوبهم، ومُجلِبةٌ للثَّواب العظيم[6].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/20.
(5) القنوجي، فتح البيان: 5/389.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

للطّاعات أثرٌ في الدُّنيا بحصول البركات، وفي الآخرة بدخول الجنّات

الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: تنمّيهم، وتزيدهم بسبب أخذها خيرًا[1]، وقد حسُن جعلُ الباء للسَّببيَّة؛ لأنَّ نظم الآية جعل حصول التَّزكية مسبَّبًا عن قبول الصَّدقة، فهي كالنَّتيجة المترتِّبة عليه، وفيه دلالةٌ على أثر الطّاعة العاجل في الدُّنيا مِن حصول الطُّهر والبركة والرِّفعة لصاحبها، فضلًا عمّا ينتظره من الثّواب الآجل يوم القيامة.

دلالةُ العطف في: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾:

يُحتَفى بالتّائب ويتألَّف، ويُلان له الكلام، ولا يُعيَّر بما أسلف

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[2]، ومعناه: اعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم[3].

ويُؤخذ من المعنى: أنَّه ينبغي إدخال السُّرور على المؤمن بالكلام اللَّيّن، والدُّعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه، وأنَّه ينبغي تنشيط من أنفق نفقةً، وعمل عملًا صالحًا بالدُّعاء له، والثَّناء عليه، ونحو ذلك[4].

وفي دعاء النبي ﷺ واستغفاره لهم دليلٌ على قبول توبتهم، وأنَّ الله سبحانه قد رحمهم، وغفر ذنوبهم، ورفع درجتهم، وأمرَ رسوله ﷺ بالدُّعاء لهم؛ لتطمئنَّ نفوسُهم، وتقرَّ أعينُهم برؤية الدَّليل على قَبول الله تعالى توبتَهم.

وفيه تعريضٌ أيضًا بباقي المنافقين الذين استكبروا عن التوبة، وأصرُّوا على معصية الله ﷻ ورسوله ﷺ، فكأنَّه قال لهم: قد استحقَقْتم أشدَّ ألوان العذاب؛ لأنَّكم عصيتم وتربَّصتم وتقاعستم،

(1) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/166.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/27.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 351.

ولو أنَّكم تبتم؛ لَتِيبَ عليكم، كما تِيب على مَن تلطَّخوا بأقذاركم، فلم يلبثوا أن طهَّروا أنفسَهم منها بالتَّوبة والإنابة، فارتفعوا عن دنس أوحالِكم إلى علياء الإخلاص.

سرُّ تعدية الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على):

دعـــاءُ الـنَّـبـيِّ المختار كالغيث المـــدرار يحيي المَوات والقِفار

عُدِّي الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على) لما فيه من معنى العطف، وإرادة المعنى اللُّغوي هنا - وهو الدُّعاء - هو المتبادر[1].

وهي إشارة أيضًا إلى أنَّ هذه الدَّعواتِ المباركات من النَّبيِّ ﷺ سابقةٌ لهم، فائضة بالخير عليهم، نازلة بالبركات عليهم[2].

ففي (على) معنى الاستعلاء والفوقيَّة، فقد صوَّر هذا الحرف بدلالته صورة هؤلاء التَّائبين بمَن أصابه القذر والقذى والدَّنس، فأراد أن يتطهَّر من كلِّ ذلك، فوقف تحت ماء طهورٍ مبارك يَفيض عليه من أعلى، وهذا الماء الطَّهور هو دعاء أكملِ الرُّسل ﷺ لهم، واستغفاره لذنوبهم.

معنى الأمر في: ﴿وَصَلِّ﴾:

الـلـــه يـرشـد عباده لكلِّ خير وفـــلاح، ومـنـه مقابلةُ الإحسانِ بالشُّكر والثناء

الأمر هنا للإرشاد، حيث يرشد اللهُ تعالى رسولَه ﷺ - والأُمَّة من بعده - إلى أنْ يدعوَ للمتصدِّقين، ويستغفرَ لهم، ومن هنا اختُلف في دلالته الشَّرعية بين الوجوب والاستحباب، وإن كان ظاهر قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أنه يجبُ على الإمام أو نائبِه إذا أخذ الزكاة؛ أن يدعوَ للمتصدِّق بالبركة، وهذا رأيُ الظاهرية، وأمّا سائر الأئمَّة؛ فحملوا الأمرَ على النَّدب والاستحباب؛ لأنَّ النبي ﷺ قال لمعاذ - حين بعثه لليمن -: «أعلِمْهم أنَّ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم، وتردُّ في فقرائهم»[3]، ولم يأمره بالدعاء لهم، ولأنَّ الفقراء إذا أخذوا الزكاةَ؛ لا يلزمهم الدُّعاء للمعطي.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.

(3) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1496) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (19).

وممَّا يؤكِّد استحبابَ الدُّعاء ما رُوي عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم؛ قال: «اللهمَّ صلِّ عليه»، فأتاه ابنُ أبي أوفى بصدقته، فقال: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»[1]، والصلاة هنا: الرحمة[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ لـ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال عن علَّة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، فجاءت الإجابةُ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾.

قلوبُ التّائبين مصدوعة بالنَّدم، ولا يطبّبها إلا دعاء سيّد البشر

فهذه الجملة الكريمة إذًا واقعةٌ موقع التَّعليل للأمر بالصَّلاة عليهم بأنَّ دعاءه ﷺ سكنٌ لهم، أي: سببٌ سكن لهم، أي: خير[3].

فائدةُ المؤكِّدات في: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

حسُن أنْ تؤكَّد هذه الجملة الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾والجملة الاسميّة؛ لأنَّها سيقت في مقام الخبر الطَّلبي الذي يوجَّه إلى مخاطَب يتردَّد في تصديقه، والمراد به هنا هو القوم المعنيُّون الذين نزلت في حقِّهم هذه الآية؛ "لأنَّهم كانوا شاعرين بعِظَم جُرْمهم، فيتوهَّمون بفرط إحساسهم وإيمانهم بأنَّ ذنبهم غيرُ مغتفَر"[4]، فجاء التَّوكيدُ ليزيل ما في نفوسهم مِن التَّردُّد، وليؤكِّد أنَّ سَكَنَ نفوسهم، وطمأنينةَ قلوبهم متعلِّقان بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، فسوف يذهب همُّهُم وكربُهم بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، "ويثقون بأنَّه سبحانه قبِل توبتهم"[5].

سكنُ القلوب وزوال الكروب وذَهاب الهموم متعلِّقة بدعاء النَّبيِّ المعصوم

نكتةُ إضافةِ الصلاة إلى الضمير العائد إليه ﷺ:

أُضيف إلى الصَّلاة – التي هي بمعنى: الدُّعاء – الضَّميرُ العائد

الإضافةُ إلى العظيم تفيد التَّشريفَ والتَّعظيم

(1) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6332)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078).

(2) الزحيلي، التفسير المنير: 11/34.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99.

إلى النَّبيِّ ﷺ؛ للدِّلالة على أنَّ دعاء النَّبيِّ ﷺ لهم هو ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، أي: تطمئنُّ بها قلوبهم بعد قلق الخوف من عاقبة الذَّنب؛ لِما يعلمون من أنَّ القَبول لا يكون إلا ممَّن حصل له الرِّضا عنهم، ومِن أنَّ اللَّه ﷻ سمع قول نبيِّه ﷺ، ودعاءه لهم سماعَ إجابة، ويعلم صدقه في صلاحهم[1].

وفي تخصيص الضَّمير نكتةٌ بلاغية ومعنويَّة عند الإمام الرّازيِّ، ذلك أنَّ رُوح النَّبيِّ ﷺ كانت رُوحًا قويَّة مشرقة صافية باهرة، فإذا دعا النَّبيُّ ﷺ لهم، وذكَرَهم بالخير؛ فاضت آثارٌ من قوَّته الرُّوحانيَّة على أرواحهم، فأشرقت بهذا السَّبب أرواحُهم، وصَفَت أسرارهم، وانتقلوا من الظُّلمة إلى النُّور، ومن الجسمانيَّة إلى الرُّوحانيَّة[2]، فكانت معاشرتُه ﷺ إيَّاهم بهمَّته معهم أثمنَ لهم من استقلالهم بأموالهم[3]، ويضاف إلى ما سبق ما تفيده الإضافة من تعظيم المضاف إليه[4].

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة في إفرادِ الصَّلاة وجمْعِها:

قرأ حمزةُ والكسائي وخلف وحفصٌ بالإفراد وفتحِ التاء: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾، وقرأ الباقون بالجمع وكسرِ التاء: (إِنَّ صَلَوَاتِكَ)[5]، فقراءة الإفراد روعي فيها الجنسُ، أي: جنسُ صلاة النَّبيِّ ﷺ، وقراءة الجمع روعي فيها تعدُّدُ المدعوِّ لهم[6].

لدعاء خير البريَّة خصوصيَّةٌ في إصلاح قلوب الرَّعيَّة

وعلى ذلك فالقراءتان سواء؛ لأنَّ المقصود منهما جنسُ صلاته ﷺ، فمَن قرأ بالجمع؛ أفاد جميعَ أفراد الجنس بالمطابقة؛ لأنَّ الجمع المعرَّف بالإضافة يعمُّ، ومَن قرأ بالإفراد؛ فُهِمت أفراد الجنس بالالتزام[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/12.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(4) حسن، بلاغة اللغة: 1/449.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/281.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.

نكتةُ تنكير: ﴿سَكَنٌ﴾:

التَّنكير في سياق الإطـراء إجـلالٌ وثناء

جاءت كلمة ﴿سَكَنٌ﴾ في الآية نكرةً لإفادة نكتة التَّعظيم، أي: سكنٌ عظيمٌ جليل؛ إذ مِن دواعي التَّنكير: إرادةُ التَّعظيم إذا دلَّت عليه قرائن السِّياق[1]، وممَّا دلَّ على إرادة التَّعظيم هاهنا هو قرينة مدح دعاء النَّبيِّ ﷺ واستغفاره للتَّائبين، وما يُفيضُه من طمأنينة وراحة للمُثقَلة كواهلُهم والآنَّةِ أرواحُهم من وطأة الذُّنوب.

كما أكَّد هذا التَّعظيم بأنْ جعل السَّكن مصدرًا مخبرًا به عن صلاة النَّبيِّ ﷺ، وهي دعاؤه واستغفاره للتّائبين، أي: إنَّ هذه الصَّلاة، هي السَّكَنُ نفسُه[2].

فائدةُ المجازِ في إطلاق السَّكن على الدُّعاء:

دعـاء الـنَّـبـيِّ راحة وطمأنينة لـلـمـثـقـلـة كـواهـلـهـم مِـنَ الذُّنوب

أُطلق السَّكن على الدُّعاء من باب المجاز؛ إذ إنَّ السَّكَن: ما يُسكَن إليه، أي: يُطْمَأنُّ إليه، ويُرتاح به، وهو مشتقٌّ من السُّكون بالمعنى المجازيِّ، وهو سكون النَّفْس، أي: سلامتها من الخوف ونحوه؛ لأنَّ الخوف يوجب كثرةَ الحذر واضطراب الرَّأي، فتكون النَّفْس كأنَّها غير مستقرَّة؛ ولذلك سُمِّي ذلك قلقًا؛ لأنَّ القلق كثرة التَّحرُّك، وأيضًا فإنَّ دعاءه ﷺ لهم يزيد نفوسهم صلاحًا وسكونًا إلى الصَّالحات؛ لأنَّ المعصية تردُّدٌ واضطراب، كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]، والطَّاعة اطمئنانٌ ويقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فالحاصل أنَّ دعاءَ النَّبيِّ ﷺ ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، أي: سببُ سكونهم، أي: خير تامٌّ لهم، فإطلاق السَّكن على هذا الدعاء مجاز مرسلٌ علاقته السَّببيَّة والمسبَّبيَّة.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/405.

(2) حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص: 145.

براعةُ التشبيه البليغ في: ﴿صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾:

دعـاء النَّبـيِّ دوحـةٌ يستظلُّ بها المستجيرون مـن رمـضـاء الخطايا

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تشبيهٌ بليغ، وأصله: (صلاتك كالسَّكَن)، فحُذفت أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصار بليغًا[1].

وسرُّ جماله هنا أنَّه جعل الصَّلاة نفسَ السَّكنِ والاطمئنانِ مبالغةً؛ ذلك أنَّ ذكر الطَّرفين فقط يوهم اتِّحادَهما، وعدمَ تفاضلهما، فيعلو المشبَّه إلى مستوى المشبَّه به، وهذه هي المبالغة في قوَّة هذا التَّشبيه[2].

وقد أفاد تشبيه الصَّلاة بالسَّكن مدحَ الصَّلاة وتحسين حالها؛ ترغيبًا فيها، وتعظيمًا لها، وذلك بتصويرها بصورةٍ تهيِّج في النَّفس قوى الاستحسان، عن طريق ذكرِ المشبَّه به المعجَبِ (السَّكَن)، الذي قد استقرَّ في النَّفْس حسنُه وحبُّه، فصُوِّر المشبَّهُ بصورته[3].

معنى اللّام في: ﴿لَّهُمْ﴾:

السَّكنُ كالدَّواء يقـدَّر عـلى قدر الـدّاء بـلا كـثرة قـاتـلـة ولا قـلَّة مؤلمةٍ

اللام في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ﴾ للاختصاص، أي: سَكَنٌ مختصٌّ بهم، وفائدةُ هذا الاختصاص أنَّه جعلَ دعاء النَّبيِّ ﷺ يحقِّق لكلِّ منيبٍ تائبٍ باذلٍ صدقتَه سكنًا خاصًّا به، فإنَّ ما يقلق النَّفْس البشريَّة – وإنْ أمكن حصرُه – فإنَّ درجته ويزيدها تعقيدا يختلف من إنسان إلى آخر، فمن ثمَّ لم يكن السَّكنُ على درجة واحدة للجميع، بل كان بحسب حالة كلِّ إنسان بمفردِه؛ إذ هذا السَّكن كالدَّواء: ينبغي أن يكون على قدرِ الدَّاء فلا يزيد، ولا يقلُّ.

معنى الواو ودلالاتها في: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

مـا أرحـمَ اللـهَ بـعـبـاده! يعلمُ السَّريرة، ويغفر الجريرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافيةٌ، والجملة بعدها مبتدأ وخبران[4].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/45.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 238.
(3) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 239.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 4/379.

ويمكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: إنَّ صلاتك سكنٌ لهم، والحالُ أنَّ الله سميعٌ عليمٌ، يسمع صلاتَك، ويعلم حالَهم.

سرُّ التَّعبير بالألوهيَّة دون الربوبيَّة:

الله هو الغنيُّ، لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصية، فهو الإله الحقُّ

أوثر التَّعبيرُ بالألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لوجوه:

أوَّلها: ما في الألوهيَّة من معاني العلوِّ والغِنى والقَهر والكمال، وهذه الدِّلالات تقتضي وجوبَ إخلاص العبادة والعمل والدُّعاء للمتَّصف بها، وهو الله سبحانه وحده، أمَّا الرُّبوبيَّة؛ فمعانيها دائرة حول الخلق والرِّزق والملك والتَّدبير والرِّعاية، فالألوهيَّة مقامُ العمل وإخلاص العبادة، والرُّبوبيَّة مقام الاعتقاد والعلم.

الثَّاني: أنَّه لمَّا قال في أوَّل الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أراد أن يزيل التَّوهُّم الذي قد ينشأ عند المنافقين والكُفَّار مِن أنَّ الله تعالى - حاشاه - يسألهم أموالَهم، فلذلك عُبِّر باسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾، أي: المألوه، وهو المعبود بحقٍّ، الغنيُّ عن الخلق.

الثَّالث: أنَّ الأمر الموجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ بالصَّلاة عليهم إنَّما قُصِد به القومُ؛ إذ هم المنتفعون بصلاته ﷺ، ثمَّ هو عامٌّ بعد ذلك لكلِّ أئمَّة المسلمين؛ فلذلك ناسب التَّعبير بالألوهيَّة، أي: إنَّ إلهكم الذي تتوجَّهون إليه بالتَّوبة والدُّعاء والرَّجاء، وتقصدون وجهه بصدقاتكم، وتطمعون في ثوابه بنفقاتكم إلهٌ سميع: وسع سمْعُه الأصوات، عليم قد أحاط بكلِّ شيء علمًا.

الرَّابع: أنَّ التَّعبير باسم الجلالة الدَّالِّ على الألوهيَّة جيء به في هذا السِّياق ليكون التَّذييل مستقلًّا بنفسه؛ لأنَّه ممَّا يجري مجرى المثل.

بلاغةُ التَّذييل بهذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للأمر بالدُّعاء لهم، والمراد بالسَّميع هنا المجيبُ للدُّعاء[1]، ففيه إشعارٌ بقبول الدُّعاء وقبول الطّاعات والجزاء عليها[2]، والجملة حينئذٍ تذييلٌ للتَّعليل مقرِّرٌ لمضمونه[3].

الله يعلم حاجة كلِّ سائل وإن لم يسعفه منطقُه في التكلُّم بها

فالحاصل أنَّ الله ﷻ لمّا كان سميعًا للنِّداء، مجيبًا للدُّعاء، عليمًا بالسَّرائر، خبيرًا بما في الضَّمائر؛ حسُن أن يأمر عباده بدعائه واستغفاره والمبادرة بالتَّوبة إليه، فلا واسطة بينهم وبينه سبحانه وبحمده، وزاد هذا الإرشادَ بهاءً وجمالًا خَتْمُ الآية باسمين كريمين له تعالى يتناسبان مع مضمون المعنى.

نكتةُ تقديم ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

الله ﷻ يسمع المناجاة، ويجيب دعاء عبادهِ إيّاه وهو بهم أعلم

قُدِّم الاسم الجليل ﴿سَمِيعٌ﴾؛ للإشارة إلى قبول دعاء النَّبيِّ ﷺ، ففيه إيماءٌ إلى التَّنويه بدعائه، ثُمَّ ذكر (العليم) إيماءً إلى أنَّه ما أمره بالدُّعاء لهم إلّا لأنَّ في دعائه ﷺ لهم خيرًا عظيمًا وصلاحًا في الأمور[4].

فالحاصلُ أنَّه لمّا تقدَّم الأمر بالدُّعاء؛ ناسب أنْ يعقبه ما يدلُّ على أنَّ هذا الدُّعاء مسموع ومجاب، فلذلك قُدِّم قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾.

لطيفةُ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

وسع سمعُ الله كلَّ الأصوات، وأحاط علمًا بكلِّ الموجودات

جاء هذان الاسمان الجليلان نكرتين لغرض إفادة التَّعظيم من خلال التَّعميم بالتَّنكير؛ لأنَّ النَّكرة قد وردت في سياق المدحِ والثَّناء، والمعنى: أنَّه سبحانه سميعٌ لكلِّ صوت، فقد وسع سمعه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/21.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

سبحانه الأصوات، ويستوي عنده ﷻ همسُها وخفيضُها وجهوريُّها، وهو ﷻ عليم بكلِّ شيء، فقد أحاط ﷻ بكلِّ شيء علمًا، فلم تغب عنه غائبةٌ، ولم تخفَ عليه خافية، ولم يعزب عنه من شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وممَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميم ورودُ الاسمين الجليلين بصيغةِ المبالغة العاملة عمل فعلها، فهي بمنزلة فعلِها الذي حُذف معمولُه توسُّعًا لإرادة التعميم، أي: يسمع كلَّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، وهذه قرينة لفظيَّة، أمَّا القرينة الفكريَّة؛ فقد دلَّت على التَّعميم من حيث إنَّ صفاتِ الله ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له، وقد دلَّ على ذلك نصوصُ الشَّرعِ والعقلُ[1].

غرضُ صيغ المبالغة فيهما:

الله سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعدُّ فعلًا

عُبِّر عن سمع الله سبحانه وعن علمه بصيغة المبالغة على وزن (فَعِيل)؛ للدَّلالة على قوَّة هاتين الصِّفتين، وتعلُّقهما بكلِّ مسموع ومعلوم، فهو سبحانه سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعَدُّ فعلًا[2].

نكتةُ فصل الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ﴾ عن سابقتها:

الله العظيم يحضُّ عباده على التَّوبة ويبشِّرهم بقبولها وهو الغنيُّ عنهم

الفصل هنا لكمال الانقطاع للتَّغاير بين الجملة الخبريَّة والإنشائيَّة؛ إذ لا يجوز عطفُ الجملة الإنشائيَّة على الخبريَّة والعكس إلّا إذا آلت إحداهُما إلى معنى الأخرى، فالجملة هنا إنشائيَّةٌ؛ لأنَّها جاءت استفهامًا إنكاريًّا.

ويمكن أن تكون جملة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ مستأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة الاستطراد لترغيب أمثال أولئك في التَّوبة ممَّن تأخَّروا عنها، وكان ضمير ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ عائدًا إلى ما هو معلوم مِن مقام

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5474.

التَّنزيل، وهو الكلام على أحوال الأُمَّة، وكان الاستفهام إنكاريًّا، ونُزِّل جميعُهم منزلةَ مَن لا يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولَها أم من لا يعلم حقيقةً، وكان الكلام أيضًا مسوقًا للتَّحضيض[1].

بلاغةُ الاستفهام ودلالته في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾:

مِن شأن الإقرار طمأنةُ القلب المضطرب المحتار، وحملُ المنكِرِ وأدَ الإنكار

الهَمْزةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ للاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النَّفي، و(لم) أيضًا للنَّفي، ونفي النَّفي إثباتٌ، فيكون المعنى: تأكيدُ علمهم بأنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة عن عباده، فالتَّقريرُ هنا لتطمئنَّ نفس التّائب، فهو تقرير لقبول التَّوبة، واطمئنان العاصي إلى أنَّ التَّوبة جَلَت ذنبَه[2].

فالمقصود من هذا الاستفهام هو تقرير المعنى في النَّفس، وإزالة الشَّكِّ عن المخاطَبين من التّائبين الذين بشَّرهم الله تعالى بقبول توبتهم وصدقاتهم[3]، فكأنَّه قال: اعلموا أنَّ الله هو يقبل التَّوبةَ عن عباده[4]. وهذا تأكيدٌ لقبول الله سبحانه التَّوبةَ حتى لا يُسرفَ العصاةُ – ولو كانوا منافقين – على أنفسهم، أو يظنُّوا أنَّه لا رجعة إلى الله وإلى الحق، فإنَّ اليأس يولِّد النَّفرة، والنَّفرة تولِّد الكفر، والرَّجاء في الله يكون معه الرُّجوع إليه، والرُّجوع إليه يكون معه الإيمان[5].

وقد جُوِّز عودُ الضَّمير لغيرهم من المنافقين، فالاستفهام على هذا توبيخٌ وتقريعٌ لهم على عدم التَّوبة، وترغيبٌ فيها، وإزالةٌ لما يظنُّون من عدم قبولها[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 2/346.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

نكتةُ التَّعبير بالعِلم مادَّةً وصيغةً وبيان مفعوليها:

لآيات الله المتلوَّة والمرئيَّة أبلغُ الأثر في معرفة عظيم صفاته وجليل أسمائه

تدور معاني العلم حول الأثر الذي يكون في شيءٍ ما، يميِّزه مِن غيره، فيكون هذا الأثر دليلًا عليه، وهاديًا إليه، فيترتَّب على ذلك إدراكٌ يقع في النَّفس ومعرفة[1].

ومن هنا تظهر نكتةُ التَّعبير بالعلم دون غيره في سياق التَّقريرِ لقضيَّة قَبول الله تعالى توبةَ عباده وصدقاتهم إذا أنفقوها من كسب حلال طيِّبةً بها نفوسُهم، وسياقِ الإنكارِ على مَن تأخَّرت توبتهم، وكأنَّهم في شكٍّ مِن قبول الله إيّاها.

فلمّا كان في العلم معنى الأثر الحاصل بالقرائن الدّالَّة على ألوهيَّة الله وربوبيَّته وكمال رحمته وعظمته: من إنزال القرآن، وتشريع الأحكام، وإمهال أصحابِ المعاصي والآثام، ومن خلق السَّماوات الأرض، وتدبير الأمر، وبسط الرِّزق... إلخ لمّا كان ذلك كذلك؛ حسُنَ استنكارُ عدم حدوث الأثر بكلِّ هذه المؤثِّرات التي من شأنها ملءُ القلب يقينًا بأنَّ الله هو التوّاب الرَّحيم.

فكأنَّه قيل: كيف لهم ألّا تغرس كلُّ هذه القرائنِ أثرًا في نفوسهم يثمر اليقين برحمة ربِّ العالمين؟

وممّا زاد هذا التَّعبيرَ جمالًا فوق جماله إيثارُ التَّعبير بالمضارع الذي يفيد معنى تجدُّد الحدوث واستمراريَّته، فهي إشارة إذًا لتكرُّر عدم تأثُّرهم بآيات الله المتلوَّة والمرئيَّة السَّابغة عليهم، والمحيطة بهم، وقد ترتَّب على عدم تأثُّرهم هذا جهلُهم بصفات الله التَّواب الرَّحيم.

وفي هذا إشارة ضمنيَّةٌ لتجدُّد دواعي التَّأثير من نزول القرآن مرَّةً بعد مرَّة، وتعاقبِ المَلَوان كرَّةً بعد كرَّةٍ، ونزولِ الغيث كثرةً ووفرة، ومع هذا التَّكرار للآيات التي مِن شأنها أن تذيب القلبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).

خضوعًا لعظمة ربِّ العالمين، وحبًّا لله أرحم الرّاحمين - مع ذلك كلِّه لم تتأثَّر قلوبهم، فلم يتوبوا، أو تابوا، ولكنَّهم شكّوا، أو استبعدوا قبول الله تعالى توبتهم، فلذلك أُنكر عليهم بـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ في محل نصبٍ سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾، والمصدر المؤوَّل الثاني: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في محل نصب معطوفٌ على المصدر المؤوَّل الأوَّل، ومؤكِّدٌ لمعناه[1].

سرُّ العدول عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ عدولٌ عن المصدر الصَّريح (قبول) إلى المصدر المؤوَّل المؤلَّف من ﴿أَنَّ﴾، واسمها الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وخبرها الفعليِّ ﴿يَقْبَلُ﴾ بصيغة المضارع مسبوقًا بالضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾.

من كمال رحمة الله إمهالُ المذنبين والعصاة كي يعودوا إلى طريق النَّجاة

وفي هذا العدول ما لا يخفى من تأكيد المعنى في النَّفس المصفَّدة بإسارِ الإثم؛ لِما في الجملة الاسميَّة المُصدَّرة بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ والمخبَر عن اسمها بالخبر الفعليِّ من تتابع المؤكِّدات، وهذا كلُّه سيفوتُ لو عُبِّر بالمصدر الصَّريح.

فضلًا عن أنَّ العدولَ عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل هو عدولٌ عن الاختصار والإيجاز إلى التَّطويل والإطناب، ولهذا نكتةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذا التَّطويلَ يناسبُ إمهال الله تعالى المذنبين والعصاةَ حتى يتوبوا، فيَمُنَّ عليهم بقبول توبتهم، ولم يشأ أن يعاجلَهم بالعقوبة، فكأنَّ بسط الجملة السّامية جاء مناسبًا لبسط زرابيِّ الإنابة لمن دخل أبواب التَّوبة الطّاهرة، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائرَه.

(1) صافي، الجدول: 6/28.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

وسعت رحمةُ الله كلَّ شيء، وعمَّت مغفرته كلَّ ذنب، فأنَّى يقنَطُ القانطُ

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ بعدد من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالة على الثُّبوت، ووقوعها في حيِّز النَّصب حيث سدَّت مسدَّ مفعولي الفعل ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ وهو من الأفعال الدّالَّة على اليقين، واليقين هو الغرض مِن التَّأكيد.

وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، والضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾، ومجيء المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

وتقديم هذا المسند إليه (لفظ الجلالة) ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعلي ﴿يَقۡبَلُ﴾ المتضمِّن ضميرًا يعود على المسند إليه، فتكرار الإسناد توكيدٌ، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَقۡبَلُ﴾ الدَّال على تأكيد الفعل عن طريق الدِّلالة على تكرُّره.

وحسُن توالي هذه المؤكِّدات لأسبابٍ:

الأوَّل: غرسُ اليقين في نفوس العباد جميعًا بأنَّ ربَّهم العظيم توّابٌ ورحيم، يقبل التَّوبة، ويأخذُ الصَّدقات الخالصة له سبحانه؛ وذلك كي لا ييأس أحد - كائنًا مَن كان - من رَوح الله ورحمته، ولا يتقاعسَ عن التَّوبة مَن يستعظم ذنبَه، ويرى أنَّ رحمة الله لا تسعه؛ فإنَّ رحمة الله سبحانه قد وسعت كلَّ شيء، ومغفرته تعالى قد عمَّت الذُّنوب جميعًا.

الثَّاني: توجيهُ الخطاب للمتشكِّكين أو المنكرين قبولَ اللهِ تعالى توبةَ التّائبين وصدقاتهم، حيث يحسُن تأكيد الكلام - والحالة هذه - بأكثر من مؤكِّد.

الثَّالث: أنَّ هذا الخطاب قد يشمل المؤمنين مع غيرهم من المتشكِّكين والمنكرين، وعليه يكون قد "نُزِّل جميعُهم منزلة مَن لا

يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولها، ومَن لا يعلم حقيقةً"[1]، وفائدة هذا التَّنزيل تحضيضُ الجميع على التَّوبة والإنابة.

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ﴾:

اللـه غـنـيٌّ عن طـاعـة عـبـاده، وهـم لـن يبلغوا نفعه سبحانه، فهُم الفقراء إليه

سمَّى الله تعالى نفسه العليَّة هاهنا باسم الله، ثمَّ قال عَقيبه: ﴿هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كونه سبحانه إلهًا يدلُّ عليه قبول التَّوبة، وذلك لأنَّ الإلهَ هو الذي يمتنع تطرُّق الزِّيادة والنُّقصان إليه، ويمتنع أنْ يزداد حاله بطاعة المطيعين، وأنْ ينتقص حالُه بمعصية المذنبين، ويمتنع أيضًا أنْ يكون له شهوةٌ إلى الطَّاعة، ونفرة عن المعصية، حتى يقال: إنَّ نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، بل المقصود من النَّهي عن المعصية والتَّرغيب في الطَّاعة، هو أنَّ كلَّ ما دعا القلبَ إلى عالم الآخرة ومنازل السُّعداء، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيَّات الباطلة، فهو العبادة والعمل الحقُّ والطَّريق الصَّالح، وكلُّ ما كان بالضِّدِّ منه؛ فهو المعصية والعمل الباطل، فالمذنب لا يضرُّ إلّا نفسه، والمطيع لا ينفع إلّا نفسه. كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]، فإنْ كان الإله رحيمًا حكيمًا كريمًا، ولم يكن غضبُه على المذنب لأجل أنَّه تضرَّر بمعصيته، فإذا انتقل العبدُ من المعصية إلى الطَّاعة؛ كان كرمه سبحانه سببًا لقبول توبة التَّائب إليه، فثبت أنَّ الإلهيَّة لمّا كانت عبارة عن الاستغناء المطلق، وكان الاستغناء المطلق ممتنعَ الحصول لغيره؛ كان قبول التَّوبة من الآخرين كالممتنع إلّا لسبب آخر منفصل، أو لمعارض، أو لمباين[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.

فائدةُ القصر بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

جيء بضمير الفصل لإفادة التَّخصيص والتَّأكيد، وللدِّلالة على أنَّ الله تعالى من شأنه قبول توبة التّائبين.

مِن شأن الإله قَبول التَّوبة؛ إذا مُحضت، ولا يشاركه في قَبولها أحدٌ

أمَّا التَّخصيص؛ فيفيد انفرادَ الله ﷻ بهذه الأمور: قبول التَّوبة وقبول الصَّدقة، والإثابة عليها، وتحقيق ذلك أنَّه لو قال: إنَّ الله يقبل التَّوبة؛ لاحتمل أن يكون قبول رسولِه ﷺ قبولًا منه، فبيَّنت الآية أنَّ ذلك ممّا لا يصل إليه نبيٌّ ولا ملَك، فليس ذلك راجعًا إلى رسول الله ﷺ، إنَّما الله سبحانه هو الذي يقبل التَّوبة، ويردُّها، فاقصدوه بها، ووجِّهوها إليه[1].

وأمّا التَّأكيد؛ فلأنَّ الضَّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ يفيد الفصل والتَّأكيد، ثمَّ في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ﴾ ضمير يرجع إلى المسند إليه، فيزيد الحكمَ به تأكيدًا[2].

وفائدة هذه المؤكِّدات إزالةُ الشَّكِّ الذي قد يتسرَّب إلى نفوس العاصين، فيُقعدهم عن التَّوبَة، ويقنِّطهم من الرَّحمة.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَقْبَلُ﴾:

لم يزل التَّوّاب يقبل توبة عباده، وإن تكرَّرت ذنوبُهم، فإنَّ الله تعالى لا يَملُّ

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَقْبَلُ﴾ للدِّلالة على تكرُّر توبةِ الله تعالى على عباده بتكرُّر توبتهم إليه سبحانه، فمهما تجدَّد وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبةَ الله عليه تتكرَّر متى تاب المذنبُ، وأناب إلى ربِّه التوّاب، وهذا ضرْبٌ من ضروب التَّوكيد دلَّ عليه وقوعُ الفعل بكثرة واستمرار.

معنى (أل) في: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

لا يقبل اللهُ مِن التَّوبة إلّا ما كان صحيحًا خالصًا

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾ للعهد الذِّهني، أي: التَّوبة التي يعلمها المخاطَبون بقرائن التَّنزيل، فهي إذًا التَّوبة "الصَّحيحة الخالصة"[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/308، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/250.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 7/353.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

فكأنَّه قيل: إنَّ اللّه تعالى يقبل التَّوبة التي أعلمكم قبل ذلك شرائطَها وأركانها، فمتى استوفت هذه الشَّرائطَ والأركان؛ فهي مقبولةٌ بفضله وكرمه سبحانه.

ولا يجوز تفسير (أل) بالجنس، أي: قبول جنس التَّوبة؛ لأنَّ من التَّوبة ما لا يكون خالصًا، ومنها ما لم يستوفِ أركانه وشروطه، ومنها ما كان تقيَّةً، وإن سُمِّي الجميع: توبةً.

بلاغةُ تضمين ﴿يَقْبَلُ﴾ الفعل (يتجاوز) وتعديتها بـ ﴿عَنْ﴾:

التَّـوبـة قُـربـان العائدين إلى ربِّ العـالمين، يقبل قليلَهُ، ويتجاوز عن قصورِه

في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ضُمِّن الفعل ﴿يَقْبَلُ﴾ معنى (يتجاوز)، و(يعفو) بدليل تعديته بـ ﴿عَنْ﴾، أي: يقبل ذلك متجاوزًا عن ذنوبهم التي تابوا عنها[1]، فيقبل اللّهُ بفضله وكرمه التوبة متجاوزًا عن سيِّئات عبادِه، شأن القادر العليم الحكيم الذي هو فوق عباده، وفوق الوجود كلِّه[2].

وبلاغةُ هذا التَّضمين تظهر في كون الفعل المضمَّن معنى فعلٍ آخرَ يؤدِّي المعنيَيْن في وقت واحد، أحدهما أصالةً، والآخر تضمينًا، فيكون أبلغَ في تأدية المعنى المراد؛ لأنَّ الفعلَ ﴿يَقْبَلُ﴾ قد ضُمِّن معنى (يعفو ويتجاوز) عند تعديته بـ ﴿عَنْ﴾، ولم يكن فيه ذلك المعنى من ذي قبلُ، فقد أخذ - بهذا التَّضمين - معنى جديدًا مع بقاء المعنى الأصليِّ للفعل، فهو قد جمع بين معنيين معنًى أصليٍّ، ومعنًى تضمنيٍّ[3].

ويضاف إلى ذلك أنَّ هذا التَّضمين قد صوَّر التَّوبة بصورة قُربانٍ يُقدَّم للّه تعالى؛ ليُنال به رضاه سبحانه، وهو تعالى الغنيُّ المتعالي، ففيه دلالةٌ على سَعة كرم اللّه تعالى وعفوه وصفحه، وقد زاد مِن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.
(3) البعيمي، المنصوب على نزع الخافض في القرآن الكريم: 1/288.

حسن ذلك عَطفُ أخذِ الصَّدقات عليها: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ففيه إلماحٌ لمشاكلة المعنى.

سرُّ تعدية ﴿يَقۡبَلُ﴾ بـ ﴿عَنۡ﴾:

إنَّ كلمة (عن) وكلمة (من) متقاربتان، إلَّا أنَّ كلمة (عن) تفيد البعد، فإذا قيل: جلس فلان عن يمين الأمير؛ أفاد أنَّه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضربٍ من البُعد، فقول الله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يفيدُ أنَّ التّائب يجب أن يعتقد في نفسه أنَّه صار مبعَدًا عن قبول الله تعالى له بسبب ذلك الذَّنب، ويحصل له انكسار العَبد الذي طرده مولاه، وبعَّده عن حضرة نفسه، فلفظة ﴿عَنۡ﴾ في السّياق الكريم كالتَّنبيه على أنَّه لا بدَّ من حصول هذا المعنى للتّائب[1].

الله يتجاوز عن المذنبين، وإليه يصعد الكلم الطَّيِّب

ويضاف إلى ذلك أنَّ (عن) حرفٌ موضوع للمجاوزة، فإن قلت: أخذتُ العلم عن زيد، فمعناه: أنَّه جاوز إليك، وإذا قلت: مِن زيد؛ دلَّ على ابتداء الغاية، وأنَّه ابتداءُ أخذِك إيّاه من زيد، و(عن) أبلغ لظهور الانتقال معه، ولا يظهر مع (مِن)، وكأنَّهم لمّا جاوزت توبتُهم عنهم إلى الله، اتَّصف هو تعالى بالتَّوبة عليهم[2].

فالحاصل أنَّ معنى التوبة يقتضي أنَّ ذنبًا قد حدث، واستوجبَ المذنبُ العقوبة، فإذا قبِل الله التَّوبة؛ فقد تجاوز الله ﷻ عن العقوبة؛ ولذلك جيء بـ ﴿عَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: متجاوزًا عن العقوبة بقبول التوبة[3]، فـ ﴿عَنۡ﴾ في هذا الموضع أبلغُ؛ لأنَّ فيه تبشيرًا بقبول التَّوبة مع تسهيل سبيلها[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/501.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5479.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/404.

فائدةُ الإضافة في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

الإضافةُ إلى الله العظيم لا يعادلها فضلٌ ولا شرف ولا تكريم

أُضيف العبادُ إلى الضَّمير العائد على لفظ الجلالة؛ لإفادة التَّشريف والتَّكريم، فلمّا كان السِّياقُ سياقَ تأكيد لقضيَّة قبول الله تعالى توبة التّائبين، وتعريضٍ بغيرهم ممَّن ضنُّوا على إنجاء أنفسِهم بالتَّوبة من المهلكات؛ كانت الإضافةُ البليغةُ الكريمة مؤدِّية لهذين المعنيين، فأمَّا للتّائبين؛ فلتبشيرهم بقبول التَّوبة، وإعلامهم بانتقالهم من معسكر الظّالمين إلى دوحة عبادِ الله المخلَصين، فهُم عباده ﷻ، فما أعظمَه من شرف؛ إذ انتسبوا إلى الجليل العليِّ سبحانه!

وأمّا لغيرهم؛ فلتحذيرهم من مغبَّة ابتعادهم عن مظلَّة العبوديَّة وارفةِ الأفياء، مشرقةِ الأضواء، ولتخويفهم عقوبةَ البخل والإسراف في المعاصي والأقذار، والعَبِّ من الخطايا والأوزار، ولتحبيب التَّوبة إليهم؛ لينالوا بها شرفَ الانتساب إلى ربِّ العالمين.

نكتةُ وضع المُظْهَر مكان المضمَر في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

أعلى منازل البريَّة دوام إخلاص العبوديَّة وتجديد التوبة غدوة وعشية

وضَع المظهَرَ في موضع المضمَرِ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾، فلم يقل: (يقبل التَّوبة عنهم)؛ وذلك للإشعار بعلوِّ منزلة العبادة وجلال قدرها[1]، فمَن حقَّق شرائطَ العبادة نازعته نفسه إلى التَّوبة؛ إذ لا راحة لها، ولا سكن؛ ما دامت مُبعدَةً عن رحمة الله تعالى بالإصرار على الذَّنب، والتَّقاعس عن التَّوبة، فهي كالحيِّ يموت؛ إن لم يجد الماء، فلا يدَّخر جهدًا في طلبه.

فائدةُ العطف في: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

تعديدُ صفات الرَّحمة من شأنه قطعُ قنوط مَن أيأسه الشَّيطان منها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ على قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين الكريمتين اتِّفاقًا في الخبريَّة، ومناسبة تامَّة، وليس ثمَّ سببٌ يقتضي الفصلَ بينهما، فهو من باب التَّوسُّط بين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

الكمالَيْن، وفائدة هذا العطف تعديدُ الصِّفات الجليلة لربِّ العالمين، فهو سبحانه يقبل توبة التّائبين، وهو ﷻ يتجاوز عن المذنبين، وهو تعالى يثيب المتصدِّقين، وهو ﷻ يرحم عباده المخلصين.

وتعديد هذه الصِّفات من شأنه قطع قنوط مَن يئس من الرَّحمة، أو تشكَّك في المغفرة، أو تساءل عن مصير توبته وثواب صدقته، فرحمة الله وسعت كلَّ شيء.

بلاغةُ الاستعارة في أخْذِ الصدقات:

إنَّ الكريم إذا أخذ شيئًا؛ عوَّض عنه بأضعاف مضاعفة

الأخذ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة للقبول والإثابة، أي: يتقبَّلها منهم ويثيبهم عليها، فيكون من تشبيه القبول بالأخذ بجامع الرِّضا؛ لأنَّ الكريم والكبير إذا قبل شيئًا؛ عوَّض عنه، وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازًا مرسلًا، وفي نسبة الأخذ إلى الرَّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ ثمَّ إلى ذاته تعالى في قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أخْذ الرَّسول ﷺ، قائمٌ مقام أخْذِ الله؛ تعظيمًا لشأن نبيِّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ في إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريفًا عظيمًا لهذه الطّاعة، وتشريفًا لمَن يعطيها؛ لأنَّ الذي يأخذها هو ربُّ العباد، وكأنَّما العبد يعطيه هو ﷻ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [البقرة: 245]، فهذا النَّصُّ السّامي فيه حثٌّ على الإكثار من الصَّدقات، وفي ذكر لفظ الأخذ ترغيبٌ في بذل الصَّدقة وإعطائها الفقراء[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والخازن، لباب التأويل: 2/404، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والقنوجي، فتح البيان: 5/391، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.

معنى (أل) في: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

الكريمُ يرزق عباده، ويقبلُ صدقاتِهم النّافعةَ لهم ثوابًا للغنيّ وغِنًى للفقير

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يحتمل أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: يقبل صدقاتهم، حملًا على أنَّ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائدٌ على التّائبين عن تخلُّفهم عن غزوة تبوك، الذين جاؤوا بصدقاتهم إلى النَّبيِّ ﷺ منيبين مستغفرين، ويحتمل أن تكون (أل) للجنس، أي: جنسُ الصَّدقات المندرجُ تحته صدقاتُ هؤلاء المذكورين اندراجًا أوَّليًّا، أي: هو الذي يتولَّى قبول التَّوبة وأخْذَ الصَّدقات، وما يتعلَّق بها من التَّطهير والتَّزكية[1].

فائدةُ العطف:

تأكيدُ معنى قبول التَّوبة، وغسل الحوبة، وهذا عين الرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ تنبيهًا على أنَّه كما يجب العلم بأنَّ الله يفعل ذلك؛ يجبُ العلم بأنَّ من صفاته العُلا أنَّه سبحانه التَّوّاب الرَّحيم، ففائدة العطف: تأكيدُ ما اشتمل عليه المعطوف عليه، وزيادةُ تقريرٍ لما يقرِّره مع زيادة معنى ليس فيه، أي: ألم يعلموا أنَّه سبحانه المختصُّ المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التَّوبة والرَّحمة، وأنَّ ذلك سُنَّة مستمرَّة له تعالى، وشأنٌ دائم من شؤونه سبحانه؟[2].

نكتةُ العدول إلى الجملة الاسميَّة في: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يقبل الله التَّوبةَ؛ لأنَّه هو التَّوّاب الرَّحيم

عُدِل عن الخطاب بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إلى الخطاب بالجملة الاسميَّة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - وقد كان السّياق يقتضي التَّعبير بالفعليَّة - لضربٍ من التَّأكيد والمبالغة، فقد جيء بالجملة الاسميَّة بعد الفعليَّة هنا تنويهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والآلوسي، روح المعاني: 6/16.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

بثبوت صفتَي التَّوبة والرَّحمة لله ﷻ على أكمل الأوجه وأليقها به سبحانه وبحمده.

فالحاصلُ أنَّه قد تعاوَر التَّعبير عن هذا المعنى أسلوبان، أحدهما: فعليٌّ، وهو للدِّلالة على تجدُّد التَّوبة بتجدُّد الذَّنب، فمهما تكرَّر وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبة الله عليه تتكرَّر متى تاب المذنب إليه سبحانه.

والأسلوب الثَّاني: اسميٌّ، وهو للدَّلالة على ثبوت صفة التَّوبة ودوامها، فهذا الثّاني لتعلُّقها بالله سبحانه، والأوَّل لتكرُّر وقوعها لعباده.

وقد حسُن أن يخْتِمَ بالاسميَّة دون الفعليَّة لهذه النُّكتة، فإنَّ موقعَ الاسميَّة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من الفعليَّة ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ موقعُ العلَّة من المعلول، فإنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة؛ لأنَّ الله تعالى هو التَّوّاب الرَّحيم.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

يـقـدِّم السّيـاق أعظـمَ البشرى للتّائبين، وأبلغَ الـتَّرغـيـب في التَّوبة للمذنبين

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعددٍ من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت، ووقوعها معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، وهي جملة اسميَّة مترعة بالمؤكِّدات، فعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد، وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، وضميرُ الفصل المؤكِّد الدَّالُّ على الحصر ﴿هُوَ﴾، والقَصْر بتعريف طرفي الإسناد.

ومجيءُ المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

والتَّعبير بصيغتَي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الدّالَّتين على تكرار وقوع فعل التَّوبة واستمراريَّته، ورسوخ صفة الرَّحمة.

وقد حسُن توالي هذه المؤكِّدات لِما في السّياق من تقديم أعظم

البشرى للتّائبين، وأبلغ التَّرغيب في التَّوبة للمذنبين، بما لا يخفى على المتدبِّرين[1].

بلاغةُ القصر في تعريف طرفي الإسناد وفي ضمير الفصل:

لا يغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات سوى ربِّ الأرض والسَّماوات

دلَّ تعريف طرفي الإسناد ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على قصْرِ هاتين الصِّفتين الجليلتين على الله سبحانه، وهو قصر حقيقيٌّ؛ إذ ليس ثمَّ مَن يقبل التَّوبة ويغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات، ويثيب على الصَّدقات، ويرحم عباده، ويلطف بهم إلّا الله ربُّ الأرض والسَّماوات.

وقد زاد هذا القصرَ تأكيدًا توسُّطُ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بين المسند والمسند إليه، فضلًا عن أنَّ صيغتَي المبالغة المعرَّفتين عاملتان عملَ فعلِهما المضارع، وفاعلُهما ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على لفظ الجلال، ومن المتقرِّر أنَّ تكرار الإسناد يؤكِّد المعنى ويقوّيه.

معنى (أل) في الاسمَيْن الجليلَيْن:

لله تعالى المثل الأعلى، والوصف الأجلّ، والفضل الأكمل

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لاستغراق صفات الجنس مبالغةً، فقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: أنَّه سبحانه المتَّصفُ بصفة التَّوبة الكاملة والرَّحمة الكاملة، ومَن اتَّصف بشيء مِن هاتين الصِّفتين مِن دونه تعالى؛ فإنَّما ذلك فيضٌ من لطف الله سبحانه، وقبس من نور عليائه، وهذا التَّعريف مسوقٌ للتَّعظيم.

نكتةُ تذييل الآية بهذين الاسمين الجليلين:

تطويق الآية بالبشرى يقطع خوفَ المنيب، ويرغِّب الآثِمَ ليتوبَ مِن قريب

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ قُصِد به تقريرُ ما قبله وتأكيده[2]، لأنَّه لمَّا تقدَّم تبشير التّائبين بقبول التَّوبة، وحثّ المذنبين على المسارعة بالإنابة؛ ناسب أن يُعقَّب ذلك بما يؤكِّده ويزيل شكَّ مَن يتشكَّك فيه، فلا جرم أنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/27.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/398.

ويغسل الحَوْبة، ويتجاوز عن العقوبة رحمةً منه بعباده؛ لأنَّه سبحانه هو التَّوّاب الرَّحيم.

وخُصَّ وصف الرَّحمة إشارةً إلى أنَّه لا ينتفع بالصَّدقة بوجه، وإنَّ أَخْذَه لها ليس حقيقة؛ بل هو على سبيل الرَّحمة بعباده في رجوع منفعتها إليهم، وحفظ ثوابها عليهم، فهو سبحانه الغنيُّ الذي قد رزقهم ما تصدَّقوا ببعضه[1].

وجهُ تقديم اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾:

تقديمُ السَّبب على مسبِّبِه من شأنه تقريرُ المعنى في النَّفس وتأكيده

قُدِّم لفظ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لنكتة لطيفة، فإنَّ قبول التَّوبة من الرَّحمة، فهو سبحانه الذي يكثر قبول التَّوبة؛ لأنَّه الرَّحيم ﷻ، فتعقيب ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة[2]، فهو إذًا من باب تقديم السَّبب على المسبِّب، فإنَّ صفة التَّوبة مسبَّبة عن صفة الرَّحمة، فلمّا كان سبحانه رحيمًا؛ لا جرم كان توّابًا[3].

غرضُ صيغِ المبالغة فيهما:

التَّوبة والرَّحمة سنَّتانِ مستمرَّتان لله تعالى وشأنٌ دائم

أفاد التَّعبيرُ بصيغتي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معنى الكثرة من التَّوبة والرَّحمة وتكرُّرَهما من الله ﷻ، أي: هو سبحانه الذي يقبل التَّوبة إثر التَّوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربِّهم، فهو التائبُ على التائبين بتوفيقهم للتوبة، والإقبال عليها، وهو التائبُ على التائبين بعد توبتهم قَبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم، فهذا شأنٌ دائم له سبحانه، فلا يَقنَط العصاةُ، ولا ييأس المذنبون.

وهو سبحانه واسع الرَّحمة، ودائم إفاضتها على التّائبين من عباده يثيبهم على ما قدَّموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصرُّوا على ذنب، فهذه سُنَّة مستمرَّةٌ له تعالى، وشأن دائم[4].

(1) ابن عرفة، التفسير: 2/326.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.
(3) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 144.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/27، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّطهيرُ والتّزكيةُ:

التزكيةُ تطهيرٌ وتنمية

الطّاء والهاء والرّاء أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على نقاءٍ وزوالِ دنسٍ[1]. والزّاء والكاف والحرف المعتلُّ أصلٌ يدلُّ على نماء وزيادة[2].

والتَّطهير: تنزيهٌ عن القبائح المادّية والمعنويَّة[3]، أمّا التَّزكية؛ فإنَّها تكون بمعنى التنمية بالخيرات والبركات[4]، وتكون أيضًا مبالغةً في التطهير وزيادة فيه[5].

والتَّزكية تكون بمعنى التطهير المعنويِّ كتطهير النَّفْس؛ فإذا أردت أنَّك أزلتَ عن ثوبك نجاسةً كالبول والغائط أو دنسًا؛ قلتَ: طهَّرتُ ثَوبي، ولم تقل: زكَّيتُه، واللّه أعلم.

الصَّلاةُ والدُّعاءُ:

الصَّلاة في اللغة تكون بمعنى الدُّعاء أو الحنوِّ

لا تكون الصَّلاة بمعنى الدُّعاء على الإطلاق؛ فلا تقول صلَّيت على العدوّ، أي: دعوت عليه. إنَّما يُقال: صلَّيت عليه في معنى الحنوِّ والرَّحمة والعطف؛ لأنَّها في الأصل انعطاف، ومِن أجْلِ ذلك عُدِّيَت في اللفظ بـ(على)، فتقول: صلَّيت عليه، أي: حنوتُ عليه، ولا تقول في الدُّعاء إلّا: دعوت له، فتُعَدِّي الفعلَ باللام، إلّا أن تريد الشَّرَّ والدُّعاء على العدوِّ، فهذا فرق ما بين الصَّلاة والدُّعاء[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/307.
(6) أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: 3/7، والشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الراضي على تفسيرِ البيضاوي: 1/223.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»